ـ التنافس الاستعماري الاوربي على العراق.

1. النفوذ السياسي الاوروبي واثره على العراق.

كان لإسقاط حكم داوود باشا المعادي للمصالح البريطانية وابعاد العراق عن مشاريع محمد علي في استقطابه إلى جانب دولته الجديدة في مصر والشام، بل واتخاذه قاعدة عثمانية لضرب الوجود العسكري المصري في اعالي الجزيرة الاثر الواضح في تزايد النفوذ البريطاني في ارضه إلى الحد الذي صرح فيه احد الضباط البريطانيين في بغداد وهو فرنسيس جسني في تقرير كتبه في اوائل 1831م ان النفوذ البريطاني سائد ومهم الان في الباشوية. وكان الوالي علي رضا باشا قد اصدر في اعقاب استتباب الامر له في العراق- قرارا لصالح البريطانيين في الثاني من تشرين الاول 1831 يؤكد فيه العمل وفق المعاهدات المعقودة بين الدولتين العثمانية والبريطانية، وفي مقابل ذلك طلب السفير البريطاني لدى الباب العالي من روبرت تايلر (الوكيل السياسي البريطاني في بغداد) ان يقدم المساعدات الممكنة لعلي رضا ليوطد اقدامه في الحكم واوصى تايلر حكومته بإمداد والي بغداد بالأسلحة، كما عرض على الوالي ان يتولى ضابط بريطاني قيادة جيشه، وكان ذلك في اطار العلاقات الوثيقة القائمة آنذاك بين بريطانيا والدولة العثمانية لمواجهة مشروعات محمد علي وما ترمي اليه من اهداف تشكل خطرا على وجودها في المنطقة.

لقد تعددت المشروعات التي ترمي إلى توطيد النفوذ البريطاني في العراق، فقد اوفدت حكومة بومبي خلال الفترة (1830-1860) عدة بعثات لتقوم بأعمال المسح والتخطيط فيما بين النهرين بهدف ايجاد طريق للمواصلات بين الشرق والغرب يكون متمما للطريق القديم المار برأس الرجاء الصالح. فالضابط فرنسيس جسني قام بدراسة استطلاعية

عن نهر الفرات وخليج البصرة استغرقت عاما كاملا (حزيران 1830 -حزيران 1831) اعد بعدها تقريرا مفصلا رفعه إلى حكومته يبين فيه صلاحية الفرات لسير الفن التجارية وضرورة اتخاذه سبيلا للمواصلات بين البحر وخليج البصرة كما درس احد مساعديه المدعو هـ. ب. لنج نهر دجلة خلال المدة (1837-1839) ومسح ما بين اعاليه وبغداد، ثم تقدم بالمسح والقياسات إلى شط العرب، وفي حوالي 1840 اسس شركة للملاحة في نهر دجلة وتمت اوسع دراسة تفصيلية عن العراق من قبل قائد في بحرية الهند هو جيمس فلكس جونز، الذي استغرق مكوثه في البلاد عدة سنوات (1850-1852) وتضمن تقريره الذي قدمه لحكومة بومبي جداول تفصيلية عن جميع ما يتصل بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بالإضافة إلى المسح الطبوغرافي، واقترح بان تتخذ الاجراءات لجلب رؤوس الاموال وكذلك المهاجرين لاستعمار العراق، وقد ورد في حديث احد مساعديه المسمى كولنكود وهو ضابط في البحرية الهندية، ما يشير إلى حراجة الظروف التي احاطت به وبزملائه من اتباع جونز، في اثناء قيامهم بتلك الدراسات، فهو يذكر متحدثا عن نفسه: "انني وحدي انجزت تخطيط بغداد، في ظروف جدا عصيبة، إذ كنت مضطرا إلى العمل خفية... وقد حدث احيانا ان قمت بتسجيل المواقع والمحلات على قميصي الابيض، مغتنما الفرصة إذا ما استطعت الحصول حينئذ على قلم الرصاص، وكثيرا ما اوشك امري ان يفتضح حتى انني توسلت بشتى انواع الحيل لدفع الريبة". وكانت تلك المشروعات تمثل في حقيقتها سياسة استعمارية بعيدة المدى، والتي ادت إلى توطيد النفوذ البريطاني في العراق.

في ستينيات القرن التاسع عشر بدأ البريطانيون يتطلعون لمد نفوذهم على الفاو نظرا لموقعها الاستراتيجي، اذ نظرا لاتساع التجارة البريطانية في الخليج العربي وايران في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وما نجم عن ذلك من تشعب في المصالح البريطانية في المنطقة، ولكون العراق اقصر الطرق بين مستعمرات بريطانيا في الهند وبريطانيا نفسها من ناحية، ولان هذا الطريق اكثر امانا من طريق رأس الرجاء الصالح، فقد بادرت الدبلوماسية البريطانية التي تركيز نفوذها في منطقة الفاو، التي كانت تعد الموقع الاستراتيجي لحماية

شط العرب من أي نفوذ اجنبي من طرف، والوقوف عن كثب على تحركات السلطات العثمانية من طرف اخر. ومن هنا بادرت حكومة الهند الى مفاتحة الدولتين العثمانية والايرانية بشأن اهمية مد اسلاك تلغراف عبر اراضيها من اجل تسهيل الاتصالات البرقية بين دولتيهما والعالم الخارجي، وكان قصد حكومة الهند ضمان الاتصال السريع والمباشر بين الهند وبريطانيا، لمواجهة التغلغل الاقتصادي والسياسي الاوربي في كل من ايران والدولة العثمانية، الذي بات يهدد المصالح الاقتصادية البريطانية ولاسيما بعد المباشرة بتنفيذ مشروع قناة السويس من لدن المهندسين الفرنسيين ولتزايد النفوذ الروسي في ايران وحصول روسيا على امتيازات تجارية فيها، وخشية بريطانيا من امتداد ذلك النفوذ الى الخليج العربي. ومن هنا جاء التفكير في انشاء دائرة تلغراف في الفاو لكي تربط دوائرها الرسمية في لندن مع مستعمراتها في الهند من جهة، والحفاظ على المنطقة من أي تدخل من جهة اخرى. ففي عام 1862 عهد الى الرائد باتريك ستيوارت ادارة عمليات البرق الهندية الاوربية، وبذلك اصبح اول مدير مسؤول عن دائرة البرق الهندي. لذا قام بدراسة مستفيضة حول مشروع مد اسلاك التلغراف من الهند الى الفاو، ومن ثم برا خلال العراق الى البحر المتوسط، وبعد مسح كامل للمنطقة رفع توصيته الى وزير الدولة الهندي شارحا فيها امكان مد خط تلغراف الى الفاو التي اختارها وفضلها على الكويت لتكون المكان المناسب التي تصل عند خطوط البرق. ويبدو ان توصية باترك مقبولة حيث قام الملازم ستيف عام 1863 بعملية المسح من جاسك الى الفاو، وكان الهدف من العملية هو التأكد من امكان مد الاسلاك الى منطقة الفاو، وفعلا تمت الاستعدادات في العام نفسه لمد حزمة الاسلاك(الكابل) الى الفاو، وقد افتتح الاتصال البرقي بين الفاو والهند في نيسان 1864. وعلى الرغم من اكمال هذه العملية فانه لم يكن هناك اتفاق رسمي بين الحكومة البريطانية والحكومة العثمانية الا في ايلول من العام نفسه، حيث وقعت الاتفاقية في 3 ايلول 1864 بين الحكومتين نصت على:

1. السماح لحكومة الهند تأسيس دائرة تلغراف في الفاو ويدير المحطة عدد من الموظفين البريطانيين لا يزيد عددهم على الخمسين.

2. مد كابل تحت مياه البحر من الهند البريطانية الى الفاو مار ببوشهر.
3. مد خط برق فوق الارض من بغداد يتصل بكابل ارضي عند الفاو.
4. اقامة موظفي دائرة لتلغراف البريطاني في بناية ملاصقة ببناية دائرة التلغراف العثماني لتسهيل تبادل البرقيات المستلمة من موظفي كل منهما عبر نافذة بين البنايتين، على ان يتم مناصفة نفقات البناية بين ادارة التلغراف العثماني والبريطاني.

رغم انشاء البريطانيون للتلغراف الا ان الحكومة البريطانية لم تستطع فتح مكتب بريد في الفاو مستقلا عن مكتب دائرة التلغراف، وبدأت الخدمة البريدية في عام 1867 وهو العام الذي اصبح الفاو ميناء لرسو سفن البريد. حيث كانت الحقائب ترسل من مكاتب كراتشي وبوشهر والبصرة الى موظفي محطة التلغراف البريطانية في الفاو وتقوم الاخيرة بتسليمها الى بواخر البريد في اثناء مرورها. وفي نهاية 1893 اقترح الرائد موكلر المفوض في بغداد تعيين موظف من محطة التلغراف البريطانية في الفاو ليكون ممثلا قنصليا لبريطانيا هناك. وقد وافقت الحكومة البريطانية على مقترح موكلر، وفي عام 1896 اصدر موكلر امرا اداريا بتعيين منجافش التابع لقسم التلغراف الهندي البريطاني ليكون ممثلا قنصليا لبريطانيا في الفاو. وقد رفضت السلطات العثمانية هذا الاجراء، وفي 22 ايلول من العام نفسه قدمت الحكومة البريطانية مذكرة الى السلطات العثمانية تؤكد فيها ان في حالة عدم موافقتها، فان السلطات البريطانية سوف ترسل سفينة حربية بريطانية الى الفاو لحماية المصالح البريطانية، وفعلا وبعد شهر من رفع المذكرة ارسلت السلطات البريطانية سفينة لابونج. وفي الوقت نفسه سحبت السلطات البريطانية الطلب الخاص في انشاء فرع قنصلي بريطاني في الفاو بعد ان تلقت تأكيدات من الباب العالي بشأن معالمة السفن الهندية البريطانية معاملة حسنة، الا ان السفينة لابونج بقيت قرب الفاو حتى اذار 1897، وبعدها سحبت حينما حققت الهدف الذي ارسلت من اجله، وفي الوقت نفسه اقيم مركز مراقبة على شكل سفينة شراعية خشبية تحمل ثلاث بنادق بالقرب من الفاو. وفي عام 1912 وصل خبراء بريطانيين من اجل دراسة

الامكانات المصرفية في العراق، واسفرت الزيارة عن تأسيس المصرف الشرقي مقره في لندن وفتح فرع له في بغداد، ومن ثم مجموعة فروع في كل من البصرة، والموصل، والعمارة، وكركوك، وتعزز موقع هذا المصرف الى درجة ان الحكومة العثمانية في العراق بدأت تعتمد عليه وتتعامل معه منذ لحظة تأسيسه.

لم يقتصر النفوذ الاوروبي في العراق على البريطانيين، فسرعان ما ظهر النفوذ الالماني، فقد بدأت المانيا تظهر على المسرح الدولي كقوة استعمارية تسعى بنشاط للحصول على مستعمرات، وبدأ ساستها يطالبون بذلك علنا فقد صرح بيلوف وزير الخارجية الالماني في نهاية القرن التاسع عشر في الرايخشتاغ بقوله: "لقد ذهب الوقت الذي كانت فيه الشعوب الاخرى تقتسم فيما بينها الارض والمياه في حين نكتفي نحن الالمان بالسماء الزرقاء فقط...اننا نطالب لأنفسنا بمكان تحت الشمس". لكن ظهور المانيا على المسرح الاستعماري جاء متأخرا لان الدول الاستعمارية الاخرى كانت قد سبقتها في هذا المجال، واستولت على اكثر الاسواق اهمية واغنى المستعمرات وافضلها. ولهذا تحتم على المانيا ان تفكر لا بالاستيلاء على اراضي شاغرة، بل انتزاع المستعمرات ومناطق النفوذ من الدول الرأسمالية الاخرى. وهكذا كان على المانيا ان تخوض صراعا عنيفا من اجل اقتسام الاسواق والمستعمرات واستطاعت ان تحقق في هذا المجال بعض النجاح منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر، فاستولت على مناطق لا يستهان بها في افريقيا واسيا وفي المحيط الهادي.

لقد كانت الدولة العثمانية وعلى الاخص اقطار المشرق العربي الخاضعة لها تحتل مكان الصدارة في مخططات المانيا التوسعية. فقد كانت هذه الدولة حتى بعد ان اقتطعت الدول الاستعمارية الكثير من اقاليمها وفقدت مناطق واسعة نتيجة للثورات التحررية التي قامت بها كثير من الشعوب الخاضعة لها، لا تزال تمتلك اراضي واسعة جدا في بداية القرن العشرين. وكانت هذه الدولة والاقطار العربية التابعة لها بالذات تمتاز بثروات طبيعية هائلة، وموقعي استراتيجي مهم.

فيما يخص العراق من هذه المخططات الالمانية نجد ان الالمان منذ وقت مبكر تنبهوا الى اهميته لمخططاتهم الاستعمارية، فقد اجهد الجنرال البروسي مولتكة نفسه عندما كان يعمل خبيرا في الجيش العثماني في الفترة 1835-1839 في نشر العديد من المقالات في الصحف الالمانية يدعو فيها الاوساط الحاكمة في برلين الى العمل على ان يستوطن الالمان في منطقة ازمير ووادي الفرات مشيرا الى الثروات الهائلة التي تتمتع بها هذه المناطق. وفي عام 1866 نشر البروفيسور شبرنجر وكان قد قام برحلة طويلة في الدولة العثمانية كتابا بعنوان: "بابل اغنى بلد في الماضي واكثر المناطق ملاءمة للاستيطان في الحاضر". وقد اشاد فيه ببلاد ما بين النهرين واسهب في وصف مناخها وجميع ما تمتاز به من خصائص، وخلص من ذلك كله الى التأكيد على انه لا يوجد في العالم كله منطقة اكثر ملاءمة لاستيطان الالمان. وقد زار الدولة العثمانية العديد من المستشرقين المختصين في تسعينيات القرن التاسع عشر بطلب من مختلف منظمات الاستيطان الالمانية وهدفهم البحث عن اكثر المناطق ملاءمة للاستيطان، وظهرت الدراسات التي قاموا بها على شكل تقارير وكتب تدعو الى التعجيل باستيطان اسيا الصغرى وشمال العراق، واشتهر في هذا المجال كتابا زخاو: (رحلة في سوريا وما ين النهرين)، و(على دجلة والفرات)، وكتاب اوبنهايم(من البحر المتوسط الى الخليج العربي). فقد اكد الكاتبان ان شمال العراق هو اكثر المناطق ملاءمة للاستيطان نظرا لما يتمتع به من ثروات طبيعية كبيرة، ومناخ جيد بحيث ان استيطان الالمان فيه سيؤدي الى ان يسود هناك فردوس حقيقي للمزارع على حد تعبير زخاو. ومن اللافت للنظر ان كلا المؤلفين كانا يريدان من الدولة العثمانية ان تساعد الالمان وتمهد لهم ظروف الاستيطان في تلك المناطق، اذ اعتقدا بأن على الدولة العثمانية ان تعلم القبائل العربية العاصية على العقل والبصيرة وان تعلمها احترام التقدم. وبهذا الشكل اراد المؤلفان التخلص من المقاومة العربية التي لابد ان تشتعل ضد مشاريع الاستيطان الالمانية. ويبدو ان تلك المشاريع لم تكن غائبة عن اذهان المسؤولين العثمانيين ونجد ذلك واضحا بما قاله السلطان عبد الحميد حول مؤلف اوبنهايم: "الكتاب الذي الفه البارون فون اوبنهايم

حول الهلال الخصيب يوضح بشكل جيد الاهمية الاقتصادية لوادي دجلة والفرات، هذا الكتاب الذي قرأت خلاصته، تؤيده التقارير التي ارسلها ولاتنا حول مستقبل هذه المنطقة".

اما جنوب العراق الذي يمتاز بجو حار لا يفضله الالمان فأن لهؤلاء المفكرين خططا اخرى بشأنه، فشبرينجر يدعو الى انشاء مزارع المانية واسعة هناك يستغل فيها اصحابها الالمان عمل العرب اهل المنطقة. وقد طور باول روررباخ وهو احد ابرز ايديولوجي الامبريالية الالمانية هذه الافكار وتحمس للدعوة الى التوسع في انشاء تلك المزارع واستغلال عمل الاهالي في جنوب العراق وقد قدم تصورا كيف ان اهالي جنوب العراق السمر سينسابون الى السهل الواسع لكي يجلبوا للألمان الكثير من الغلال.

ما ان حل القرن العشرين حتى كان الالمان قد حصلوا على اول امتياز لهم في العراق، في عام 1900 منحت الدولة العثمانية امتياز سكة حديد الاناضول الى مجموعة شركات المانية. وكانت هذه القضية من اهم المشكلات العالمية التي شغلت الدول الكبرى ولاسيما بريطانيا والمانيا في مطلع القرن العشرين، وكان منح الامتياز اخيرا الى مجموعة الشركات الالمانية حصيلة عقد كامل من النشاط الاقتصادي الالماني في الشرق الادنى. وقد كانت هناك مشروعات ومقترحات لمد الخطوط الحديدية في الاناضول، ومن الساحل السوري الى بغداد والخليج العربي. ولما كان السلطان عبد الحميد الثاني حريصا على زيادة وارداته من الاقطار البعيدة التابعة له، وربط اجزاء إمبراطورتيه بعضها ببعض استراتيجيا، فقد منح احدى الشركات الالمانية في 4/ تشرين الاول/ 1888 امتيازا لبناء سكة حديد من اسطنبول الى انقرة مستهدفا امرار ذلك الخط من الاناضول الى بغداد. وقد انجز هذا الخط في عام 1892، بعد ذلك بدأت المنافسة للحصول على امتياز جديد، واضطر البريطانيين الى الانسحاب من الميدان بعد ان هدد الالمان بوقف تأييدهم لسياستها في مصر. وفي عام 1893 حصلت الشركة الالمانية على امتياز لإيصال الخط من انقرة الى قيصري، ولكن هذا الخط لم يتم انشاؤه، وكذلك لمد خط اخر يمر من المناطق الجنوبية من اسكي شهر الى قونية، وقد انجز هذا الخط في عام 1896 واصبحت قضية ايصال الخط الى بغداد مشكلة انية. وقد

طرحت مشروعات عديدة، وقدمت طلبات كثيرة من قبل بريطانيا، وفرنسا، وروسيا، ولكن الالمان كانوا في المقدمة بين المتنافسين، ولاسيما بعد الزيارة التي قام بها الامبراطور الالماني وليم الثاني الى اسطنبول، والاراضي المقدسة في فلسطين في تشرين الاول 1898، حيث اعلن خلالها صداقته للمسلمين. واخيرا تخلى الفرنسيون عن معارضتهم ووافقوا على التعاون مع المصالح الالمانية. اما البريطانيون فكانوا مشغولين بأمور اخرى، وكانوا قد تمكنوا من الحفاظ على مصالحهم في الخليج العربي، باتفاقية عقدوها مع شيخ الكويت عام 1899، وافق الشيخ بموجبها على الامتناع عن ضم اية اراضي أو التخلي عنها بدون موافقة بريطانيا. اما روسيا فقد ظلت معارضة بشدة للمشروع الالماني، وشنت الصحافة الروسية انتقادات شديدة ضد السلطان عبد الحميد الثاني. ويعود سبب المعارضة الروسية للمشروع الى انها عدته وسيلة لتقوية النفوذ الالماني في الامبراطورية العثمانية، وانه سيسهل نقل وتصدير منتجات الحبوب من كافة ارجاء الامبراطورية العثمانية الى الاسواق العالمية. وفي نفس الوقت يسهل مهمة نقل المنتجات الصناعية الاوربية وخاصة الصناعات الالمانية الى اسواق الشرق، وهذا يهدد مصالح النبلاء الاقطاعيين الروس، واصحاب المصانع والتجار منهم في الوقت الذي يحول فيه الامبراطورية العثمانية الى مستعمرة المانية. ولم يكن المشروع ضد خطط روسيا القيصرية التوسعية في الشرق الادنى فقط بل جاء تهديدا مباشرا لحدودها الجنوبية كذلك. اما المخاطر العسكرية لهذا المشروع فتكمن في انه سيسهل على الدولة العثمانية نقل جيوشها من كافة ارجاء الامبراطورية الى حدود روسيا الجنوبية، وستقوي تركيا عسكريا وهي التي تحتفظ بمفتاح البحر الاسود. كما سيسهل المشروع نقل الجنود من اوروبا الى حدود القفقاس.

ولكن الالمان تمكنوا مع ذلك من الحصول على امتياز مبدئي لمد خط قونية الى بغداد في 25 تشرين الثاني 1899. لقد وجد العثمانيون من مشروع خط سكة حديد بغداد فرصة جيدة لتنمية الموارد الاقتصادية للإمبراطورية العثمانية: "فبفضل خط حديد بغداد سيعود طريق اوروبا-الهند الى سابق نشاطه، فاذا اوصلنا هذا الخط بسوريا وبيروت

والاسكندرية وحيفا نكون قد اوجدنا طريقا تجاريا جديدا. ولن يقتصر هذا الطريق على در الفوائد الاقتصادية العظيمة لإمبراطورتينا، بل سيتعداها الى الناحية العسكرية فيدعم جيشنا هناك. واذا تمكنا من انشاء شبكة ري مدروسة للاستفادة من النهرين التوأمين: دجلة والفرات، لجعلنا هذه الاراضي القاحلة جنة من جنات الدنيا كما كانت قبل الاف السنين".

بهذه الكلمات يعبر السلطان عبد الحميد الثاني عن اهمية هذه السكة. ويبدو ان السلطان عبد الحميد كان يريد ربط سكة حديد بغداد، بخط حديد الحجاز. من جانب اخر طالب هوجو كروته وهو احد مفكري الامبريالية الالمانية عام 1902 بان يعترف بالمناطق التي تمتد فيها سكة حديد الاناضول وكذلك سكة حديد بغداد، عندما يتم انشاؤها كمناطق نفوذ لألمانيا، وعد استيطان الالمان على نطاق واسع في الدولة العثمانية عاملا من عوامل ترسيخ النفوذ الالماني في الشرق الادنى، ولهذا نجده ينصح بالتعجيل بتأليف جمعية خاصة تعمل على استيطان الالمان فيما بين النهرين. وكان على هذه الجمعية حسب رأيه ان ترتبط بسكة حديد بغداد. وقد طرح كروته عددا من المطالب عد تنفيذها شرطا رئيسا للاستيطان هي:

1. اعفاء المستوطنين من الضرائب.
2. منح المستوطنين الحق في استيراد المواد التي يحتاجونها بدون ضرائب جمركية.
3. انشاء خطوط ثانوية تتفرع من الخط الرئيس لسكة حديد بغداد باتجاه البحر المتوسط.

واولى كروته اهتماما خاصا لقضية حماية المستوطنات التي سيقيمها الالمان فطالب بإنشاء سلسلة كاملة من المباني الصغيرة المجهزة بحاميات، وبذلك يكون المستوطنون الالمان في الدولة العثمانية قد تحولوا الى دولة داخل دولة، على حد تعبيره. ولم يغفل كروته الاعتبارات السياسية والاستراتيجية حيث نجده يلح على الحكومة الالمانية بان تسعى من اجل ان تحصل على محطة للفحم في الكويت تستخدمها لتجهيز الاسطول الحربي الالماني بالوقود، وطالب ايضا بمد خط تلغراف يربط الخط التلغرافي لسكة حديد

بغداد بخط تلغراف الشرق الاقصى الالماني. وهكذا نجد انفسنا امام خطة متكاملة ومدروسة بعناية تهدف لا الى استيطان اغنى مناطق الدولة العثمانية، وانما تدعو صراحة لاقتسام تلك الدولة وضم اهم مناطقها واثراها ونعني ما بين النهرين الى المانيا، وهذا هو السر في اصرار كروته على ان يظل المستوطنون الالمان محتفظين بجنسيتهم الالمانية، وفي ربطه الاستيطان فيما بين النهرين بإنشاء سكة حديد بغداد، واقامة قاعدة عسكرية بحرية في الكويت. وقد ادخل مفكر الماني اخر هو سيغموند شنايدر بعض التعديلات على خطة كروته هذه حيث اقترح ان يشتمل النص النهائي لامتياز سكة حديد على بند خاص يقضي بمنح شركة الاناضول مناطق واسعة نسبيا بمحاذاة خط سكة حديد بغداد المقبل لكي يستوطنها الالمان على ان يؤلفوا من بينهم حرسا للسكك الحديد. وهكذا ضرب شنايدر عصفورين بحجر واحد فهو باقتراحه هذه يضمن حصول الالمان على اراضي واسعة في اسيا الصغرى والعراق من جهة وانشاء قوة مسلحة في الدولة العثمانية من جهة اخرى. وقد دعت منظمة الاتحاد الجرماني عام 1904 الى ضرورة امتلاك ما بين النهرين، وان تأخذ الحكومة الالمانية على عاتقها الادارة المباشرة في وادي دجلة والفرات.

من جانب اخر حقق امتياز سكة حديد بغداد لألمانيا فوائد اقتصادية كبيرة، ففي 1903 حصلت المانيا على امتياز في انشاء ميناءاً نهريا في بغداد وتسير سفنا في نهري دجلة والفرات، وكذلك الحق في التنقيب عن النفط، وقد بدأ بالفعل التنقيب في الموصل عام 1904.

2. التنافس الاستعماري على نهب الاثار العراقية:

مع اوائل القرن التاسع عشر تزايد اهتمام الدول الاوروبية بالشرق، وسرعان ما تحول هذا الاهتمام الى تنقيب عشوائي عن الاثار رافق ذلك نهب الكثير من الاثار العراقية من قبل قناصل وممثلي الدول الاوروبية. وقد اثارت الرغبة في الكشف عن اثار العراق حماسة العام الاوروبي وبوجه خاص بريطانيا، حتى ان شركة الهند الشرقية المعروفة في لندن طلبت من ممثليها في البصرة ان يرسلوا الى بريطانيا الاجر المختوم بالكتابة المسمارية الذي بدأ

يتسرب الى اوروبا في اواخر القرن الثامن عشر. ونشط العمل اكثر بإرسال مقيما لها في بغداد وهو كلوديوس ريج الذي شغل فضلا عن ذلك وظيفة القنصل البريطاني العام في بغداد عام 1807، وقد بقي في منصبه الى ان توفي وهو في سن مبكرة عام 1821 بمرض الكوليرا. وقد امتاز ريج بموهبة في تعلم اللغات الشرقية، فكان يجيد العربية والتركية، وزار بقايا بابل عام 1811، ورسم مخططات لها كما اجرى بعض التنقيبات فيها، وزار نينوى وجمع منها الالواح المسمارية. وكان مسكنه في بغداد مركزا وملتقى للرحالة والباحثين من امثال بكنغهام وبلينو وكير بورتر. ومن مشاهير في هذه الفترة روبرت ميناں(1827-1828) الذي حفر في بابل ووجد اسطوانة من الطين منقوشة بالخط المسماري، وكذلك وليم انزورث وبيلي فريزر في ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

خلال منتصف القرن التاسع عشر تزايد التنقيب عن الاثار العراقية، ولكن هذا التنقيب كان بعيدا عن الاساليب العلمية، وكان اقرب ما يكون عن النبش لاستخراج الاثار الكبيرة كالمنحوتات. وقد اهملت الاثار الصغيرة القابلة للتلف مثل الواح الطين المسمارية، وكان الحفارون لا يستطيعون ان يميزوا دائما الجدران المبنية باللبن عن انقاض التراب والطين فأزالوا معالم الابنية القديمة المشيدة بهذه المادة، وتلفت مجاميع مهمة من الاثار بسبب اهمال تغليفها ووسائل النقل. وخلاصة القول كان هم اولئك المنقبين محصورا بالدرجة الاولى في استخراج التماثيل والالواح الحجرية الكبيرة المنحوتة وتزيين المتاحف الشهيرة في اوروبا بها.

بدأ التنقيب المكثف عن الاثار العراقية عام 1842-1843 في العواصم الاشورية في منطقة الموصل، وكان معظم المنقبين من قناصل الدول الاجنبية، واشتد التنافس ما بين الفرنسيين والانكليز، ففي اواخر عام 1842 شرع القنصل الفرنسي بول اميل بوتا بفحص خرائب نينوى من فوق تل قوينجق، وبينما كان ينقب فيه اخبره رجل من اهل خورسباد بانه يستطيع ان يجد اثارا اكثر وافضل في خورسباد، فنقل عمله الى هناك في مطلع عام 1843، وسرعان ما تحققت اخبار ذلك الرجل، اذ بدأ بوتا يستظهر المنحوتات الاشورية الشهيرة

وواصل عمله الى عام 1844 وشحن اول غنائمه الى فرنسا. وظهر على المسرح في هذه الفترة رجل انكليزي يدعى هنري لايارد، وقد شجعه نجاح بوتا في خورسباد على ان ينقب في نمرود عام 1845 وفي نينوى ففاز بكنوز اثارية شحنها الى لندن في عام 1847، فكانت اولى الاثار الاشورية التي حاز عليها المتحف البريطاني. وقد اثار نجاح لايارد اهتماما وحماسا في بريطانيا مكناه من متابعة نشاطه الآثاري بالحفر في نينوى ولاسيما القسم المعروف منها بتل قوينجق، كما واصل العمل في نمرود من عامي 1849 الى 1851 وتحرى ايضا عدة تلول اثرية في المنطقة. وبعد ان اعتزل العمل خلفه في النشاط الآثاري الانكليزي هنري راولنصون(1810-1895)، وخلف بوتا الفرنسي فكتور بلاس. وقام في هذه الفترة تنافس مشين بين الفرنسين والبريطانيين، اما بلاس فقد واصل التحريات في خورسباد، في حين تابع راولنصون ومساعده هرمز رسام التنقيبات في نينوى فظفرا بمجاميع نفيسة من المنحوتات الاشورية. ولم يقتصر التنافس الانكليزي-الفرنسي في نهب الاثار على مناطق شمال العراق، بل امتد الى جنوبي العراق لاسيما في التلول الاثرية المشهورة باسم تلو في الناصرية، حيث سمع القنصل الفرنسي في البصرة اميل دي سارزك بما يحتوي عليه ذلك الموقع من كنوز اثرية، وسرعان ما شرع في نهبه عام 1877-1878 بدون اذن رسمي من الدولة العثمانية، وغنم كميات كبيرة من الاثار السومرية القيمة من بينهما المنحوتات والكتابات، وقد باعها الى متحف اللوفر بمبلغ 13000 فرانك. وفي اثناء غياب دي سارزك اسرع هرمز رسام في نهب المنطقة الاثارية لصالح عن المتحف البريطاني.

دخلت الولايات المتحدة الامريكية الى ميدان التنافس عن الاثار عام 1877 عندما ارسلت جامعة بنسلفانيا بعثة اثارية برئاسة بيترز استاذ اللغة العبرية في تلك الجامعة، ومساعده هلبرشت للتنقيب في منطقة نفر بالقرب من عفك واستخرجت منها عشرات الالوف من الالواح الطينية المسمارية المهمة. ولعل اخر التنقيبات التي سبقت الحرب العالمية الاولى تنقيبات فالتر اندرية الالماني في اشور(1904-1914)، وزميله روبرت كولديفاي(1899-1917) في بابل.

3. البعثات التبشيرية:

وجدت البعثات التبشيرية طريقها الى العراق منذ بداية القرن السابع عشر، ففي عام 1622 قدم الاباء الكوبشيين(نسبة الى القلنسوة التي يرتديها رهبانهم) الى بغداد، ثم قدم الكرمليون(نسبة الى جبل الكرمل في فلسطين) الى البصرة عام 1623 للعمل من اجل نشر الديانة المسيحية بين الصابئة. ومنذ ذلك الوقت توالى النشاط التبشيري في العراق، فاستقر خلال القرن الثامن عشر، وطرأ عليه تطور نوعي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

اعتمد المبشرون عدة اساليب في عملهم التبشيري مثل فتح الكنائس والجمعيات الخيرية والمستشفيات والمدارس والكليات والمكتبات وغيرها، الا انهم ركزوا وبشكل ملفت للنظر على المؤسسات التعليمية، لأنها تمكن المبشرين من التغلغل في المجتمعات وغرس افكارهم في اذهـان الاطفال وغير المتعلمين، ومن ثم العمل على تنصير المسلمين واليهود.

ـ الارساليات الفرنسية:

كانت فرنسا في مقدمة الدول الاوربية التي استغلت حاجة الدولة العثمانية لمستلزمات حروبها وفتوحاتها من سلاح وتجهيزات حربية، لتقيم علاقات جيدة مع الدولة العثمانية. وقد استفادت فرنسا بالتحديد من الاموال الطائلة التي جنتها من مبيعاتها للسلاح لهذه الامبراطورية الفتية خلال القرن السادس عشر، الامر الذي مهد لها محاولة تنفيذ ما كانت تسعى لتحقيقه في ايجاد طريق تجاري بديل لطريق راس الرجاء الصالح، الذي يعد طويلا نسبيا، اذ كانت ومنذ ايام الحروب الصليبية تعد اسيا الصغرى وبلاد الشام والعراق من المنافذ التجارية القصيرة والتي توصلها الى الهند والصين. فكانت البداية عندما استغلت بوادر ظهور عجز في مالية الدولة العثمانية جراء ما استنزفته حروبها المتواصلة، فعرضت فرنسا عليها بعث النشاط التجاري في عدد من الموانئ والمدن في ولايتها، وقد حصلت فرنسا في ضوء ذلك على عدد من المعاهدات مع الدولة العثمانية سميت بالامتيازات، وكان

اولها معاهدة السلام والصداقة والتجارة عام 1535، التي وقعها السلطان العثماني سليمان القانوني الذي كان بحاجة الى حليف يساعده في الدفاع عن ملكه الذي يهدده ملك اسبانيا شارل الخامس. تلتها معاهدة عام 1569، اباحت بموجبها الدولة العثمانية حرية التنقل للرعايا الفرنسيين بين الموانئ العثمانية وممارسة التجارة فيها، وضمنت لهم الحصانة في منازلهم، واعفائهم من الخضوع للقانون المدني وقانون العقوبات العثماني، فضلا عن غيرها من الامتيازات. وباستمرار حروب العثمانيين مع ايران من عام 1576-1588 والتي استنفذت موجود خزانة الدولة العثمانية، فإنها اضطرت لتوقيع معاهدة جديدة مع فرنسا عام 1581 والتي تم تجديدها عام 1597، وكان الطابع العام لامتيازات هاتين المعاهدتين يتعلق بالأمور التجارية وحقوق الرعايا الفرنسيين، الامر الذي سمح لها بالتغلغل والتمركز في المناطق العربية والتي من خلالها مدت طريقها التجاري باتجاه الهند. كما منحت الدولة العثمانية امتيازا جديدا للفرنسيين بضوء معاهدة عام 1604 التي بموجبها اصبح المبشرين الفرنسيين تحت حماية الدولة العثمانية، حيث سمحت لهم بالإقامة والتنقل دون أي مضايقة وعلى ان ينالوا حسن المعاملة والمساعدة اكراما لملك فرنسا وتعبيرا عن المودة نحوه. اعقب ذلك عقد اتفاقية جديدة عام 1740، التي اكدت حماية فرنسا، وليس الدولة العثمانية لرجال الدين الفرنسيين المنتشرين على الاراضي العثمانية. وفي ضوء تلك الامتيازات تحقق لفرنسا وجود فاعل في ولايات الدولة العثمانية، ومن بينها ولايات العراق، ومن خلال ذلك مارست نشاطاتها التجارية والسياسية والدينية، وقد اهتمت فرنسا كثيرا بموضوع نشر الكثلكة بين مسيحي العراق، وان ذلك سيمكنها من نشر اللغة والثقافة الفرنسية الامر الذي سيوجد لها شريحة اجتماعية من اهل البلاد تدين لها بالولاء الطائفي والديني والثقافي تخدم مصالحها الاقتصادية والسياسية. وكان الفاتيكان قد اسس لأجل ذلك مجمع نشر الايمان عام 1622، هدفه نشر المذهب الكاثوليكي في العراق تحديدا، حيث انطلقت منه عدة ارساليات تبشيرية تحمل اسماء مختلفة وهي الاوغسطينيون، والكبوشيون، والكرمليون، والدومنيكان.

لم يكن عمل الارساليات التبشيرية المسيحية على العموم سهلا، لاسيما في بداياته وذلك بسبب حالات الرفض والتقاطع في الافكار والمفاهيم بين حملة الافكار الدينية الجديدة وبين المواطنين المسيحيين من اتباع المذهب الارثوذكسي الذي يمثل قيم الكنيسة الشرقية.

كانت ولاية البصرة اولى مناطق العراق التي شهدت بدايات النشاطات الفرنسية، وكان ذلك على يد المبشرين الفرنسيين من الاباء الكرمليين الذين وفدوا اليها عام 1623. وقد حضي الرهبان الفرنسيين باحترام ولاة البصرة، وكان مجمع نشر الايمان يتعمد ارسال مبشرين يمتهنون الطب الى جانب واجباتهم الدينية لتكون وسيلة للتقرب من الاهالي، وذلك لانعدام هكذا خدمات في بداية فترة الحكم العثماني لعموم العراق. وفضلا عن نشاطاتهم الدينية فقد مارس الرهبان الفرنسيين في البصرة الواجبات التي اوكلت اليهم لمتابعة امور التجارة، وامور ادارة القنصلية الفرنسية في البصرة في بداية عملها. وسبب قلة ثم انحسار الانشطة الفرنسية عموما في ولاية البصرة، فان نشاطات الاباء الكرملين في مجال التربية والتعليم كانت تقريبا مفقودة طيلة فترة عملهم في البصرة، ولم يظهر هكذا نشاط الا مع بداية القرن العشرين حيث اسسوا في عام 1902 اول مدرستين ابتدائيتين في البصرة، وفي مركز مدينة العمارة، وكانت الدراسة فيهما مختلطة، وفي عام 1906 اسسوا مدرسة ابتدائية للبنات اشرفت عليها راهبات فرنسيات، وهي مدرسة راهبات التقدمة، والثانية عام 1907 وهي مدرسة اللاتين للبنات.

اما في ولاية بغداد فقد شهدت قدوم اولى الارساليات التبشيرية الكاثوليكية عام 1622، وكانوا من الاباء الكبوشيون، وكانوا جميعهم من اصل ايطالي، واستمر تواجدهم الى عام 1708، وقاموا ببناء دير وكنيسة عام 1628 الحقت بها مدرسة ابتدائية لأبناء طائفتي السريان والارمن الكاثوليك، فضلا عن نشاطاتهم الكنسية والتربوية، كما مارس الاباء الكبوشيين الطب. وقد مهد الاباء الكبوشيون الطريق لإرساليات الاباء الكرملين الفرنسيين في بغداد والموصل، حيث قدموا هذه الولايات بعد انتهاء عمل الاباء الكبوشيين. وكان اول

راهب كرملي فرنسي اقام وعمل في المجال الديني التبشيري في بغداد هو الاب عمانوئيل بابيه في عام 1728. ويعد من اهم الاباء الكرملين الذين رسخوا المذهب الكاثوليكي في بغداد. وقد فتح هذا الاب مدرسة ابتدائية للبنين عام 1737. وقد اصبح بابيه فيما بعد اول قنصل فرنسي في بغداد عام 1742، فضلا عن عمله الاساس كرئيس لإرسالية الكرملين التبشيرية، وعلى اثر ذلك وبسبب اتساع نشاطه الكنسي، فقد امر الفاتيكان في العام نفسه ترقية بابيه اذ اصبح او اسقف كاثوليكي في ولاية بغداد، واستمر في عمله القنصلي والكنسي الى وفاته عام 1773. وقد شهدت الفترة اللاحقة لوفاة هذا الاسقف تذبذبا في نشاط الارساليات الفرنسية الى بغداد الى عام 1825. وقد اسست الارسالية الكرملية مدرسة للبنات في بغداد عام 1881 سميت المدرسة المركزية، اشرفت عليها مجموعة من راهبات التقدمة الدومنيكان. كما قام الاباء الكرملين بتوسيع عمل ونشاطات المدرسة الخاصة بالأولاد والتي سبق وان تأسست عام 1737 ليصبح اسمها مدرسة القديس يوسف. وقد اصبحت فيما بعد من اجمل وارقى المدارس في بغداد ضمت المراحل الدراسية الثلاث الابتدائية، والرشدية، والاعدادية، ومدة الدراسة فيها ثمان سنوات. وكانت تدرس فيها اللغة العربية وآدابها، فضلا عن اللغة الفرنسية، والادب، والعلوم طبقا لمناهج المدارس الفرنسية، فضلا عن دروس دينية كانت توضع بإشراف الفاتيكان. وفي عام 1905 افتتح الاباء الكرملين مدرسة ثانوية بغداد وكان يدرس فيها خمسة مبشرين فرنسيين. وفي عام 1888 اسس الاباء الكرملين ديرا جديدا، التحق به عدد من طلاب علم اللاهوت والدراسات الدينية، والذين كانوا يدرسون اللغات مثل العربية والفرنسية وادبهما، وقد تخرج من هذا الدير مجموعة من رجال الدين الكرملين الذين رفدوا حركة الادب والثقافة في بغداد بالعديد من الاعمال الادبية ومن اشهرهم الاب انستاس الكرملي.

اما في الموصل فأن اول تواجد للآباء الكرملين الكاثوليك منذ بدايات القرن الثامن عشر، ولم يكن بينهم أي راهب فرنسي الاصل، وقد اضطروا الى غلق ارساليتهم في مدينة الموصل عام 1724 بضغط من الكنائس الأرثوذكسية. وقد استقر بعد ذلك الاباء

الدومنيكان منذ عام 1750، وكانت ارساليتهم تضم اثنين من الاباء من اصل ايطالي، وكانا يقدمان الخدمات الطبية فضلا عن عملهم الكنسي. وقد استمر عمل الاباء الدومنيكان من الايطاليين الى عام 1856 اذ تم استبدالهم باخرين فرنسيين. وقد رأس اول ارسالية دومنيكية اعضائها من الرهبان الفرنسيين الاب بيسون، وهو اول فرنسي يقيم في مدينة الموصل. وقد افتتحت الارسالية الدومنيكانية عام 1854 مدرسة الاباء الدومنيكان الابتدائية المختلطة في مدينة الموصل، وكانت تدرس فيها مناهج الدراسة الفرنسية. وفي العام نفسه شيد الاباء الدومنيكان مدرستين في ضواحي الموصل، فضلا عن اثنتين في كركوك. وفي عام 1873 تم افتتاح مدرسة اخوات المحبة في الموصل، التي اخذت على عاتقها تعليم وتدريب البنات المسيحيات والمسلمات على فنون الخياطة والتطريز. وفي مجال الطباعة اسس الدومنيكان عام 1858 مطبعة حجرية باسم مطبعة الدومنيكان. كما اسهم الاباء الدومنيكان في اصدار اول مجلة في العراق هي مجلة اكليل الورد عام 1902. كما اسهموا كذلك في ادخال الات التصوير الفوتوغرافي والآلات الموسيقية الغربية لأول مرة الى مدينة الموصل.

ـ الارساليات التبشيرية الامريكية:

لقد بدأ التبشير الامريكي في الدولة العثمانية للمرة الاولى وبشكل شعبي من خلال تشكيل جماعة تبشيرية في كلية وليامز في عام 1806، التي قام افرادها بمناشدة ولاية ماساشوستس المستقلة ليتم دعمها ومساندتها في مجال التبشير. وفعلا تم التعاون الذي نجم عنه تأسيس مجلس المندوبين الامريكان للبعثات التبشيرية الخارجية بجهود جماعة من الكنيسة البروتستانتية المشيخية المستقلة في بوسطن عام 1810. وباشر المجلس اعماله التبشيرية في الدولة العثمانية بأن ارسل في عام 1818 مبشرين امريكيين هما بلينتي فسك، وليفي بارسونس لتنفيذ اعمال تبشيرية في الدولة العثمانية تمهيدا لفتح محطات تبشيرية ثابتة، تلك المحطات التي تأخر فتحها الى عام 1820 حين قدم الى ازمير مبشران امريكيان

واقاما فيها محطة تبشيرية امريكية. ثم اتسع نشاط المبشرين الامريكان في الدولة العثمانية بقسميها الاسيوي والاوربي.

استهل المبشرون الامريكان عملهم التبشيري في العراق في ولاية الموصل في البداية بعمل شبه استطلاعي حيث اوفد مجلس المندوبين المشار اليه سابقا المبشر جوستن بركنز(1805-1865) بصحبة الدكتور اساهيل جرانت الى اورميه غرب ايران عام 1833 لفتح محطة هناك تلك المحطة التي امتد نشاطها الى جبال كردستان والموصل لاحقا. وزار جرانت وبركنز الموصل، ولما عاد جرانت الى الولايات المتحدة اوصى مجلس المندوبين بفتح ارسالية في الموصل. وقد لاقت توصية جرانت اذنا صاغية اذ تمت الموافقة عليها في 18 كانون الثاني 1841، فأرسل المجلس اثنين من المبشرين مع زوجتيهما الى الموصل لإقامة ارسالية تبشيرية هناك وهم كولبي ميتشل وابيل هينسدل، وبعد وصولهما الى الموصل باشرا بتأسيس الارسالية الا ان ميتشل وزوجته توفيا، وبقي جرانت مع هينسدل وزوجته ينظمون مدرسة الارسالية لليعاقبة في الموصل، وبعد اكمال تنظيم المدرسة فتحها جرانت في تشرين الاول 1842، وكان فيها آنذاك 20 تلميذا، ويبدو ان الهدف كان تحويل هؤلاء الى المذهب البروتستانتي، وفي تشرين الثاني انظم الى جرانت مبشر امريكي قدم من الموصل ومعه ثمانية بغال محملة بكتب دينية مطبوعة باللغة السريانية وكتب مدرسية منهجية وتجهيزات مدرسية. وبعد استقرار امر المدرسة رحل جرانت وهينسدل الى اشيثا وهي قرية نسطورية في منطقة هكاري لإقامة محطة تبشيرية امريكية هناك تاركين زوجة هينسدل تدير مدرسة الموصل. ونتيجة للنقص الحاصل في الارسالية بسبب موت ميتشل وزوجته التحق القس توماس لاوري وزوجته بإرسالية الموصل، الا ان هذا لم يحل المشكلة لان الموت بدأ يحصد ارواح مبشري الارسالية فتوفي هينسدل في الموصل بعد عودته من اشيثا لإصابته بمرض التيفوئيد، وتوفيت زوجة لاوري في 16 كانون الاول 1843، وتوفي جرانت في الموصل في 24 نيسان 1844 بسبب اصابته بمرض التيفوس الذي نقله اللاجئون النساطرة الى بيته، ونتيجة لكثرة الوفيات في صفوف مبشري الارسالية قررت الاخيرة تعليق عملها في الموصل.

اما المحاولة الثانية فتمت مبكرا في عام 1835 وتمثلت في ارسال مجلس الكنيسة الاسقفية للإرساليات التبشيرية في الولايات المتحدة للقس ساوثكيت الى الشرق الاوسط لدراسة امكانية التبشير في بلاد فارس والعراق والاناضول. وبالفعل توجه ساوثكيت الى الشرق عام 1836 وبعد ان قضى هناك سنتين اوصى مجلس الكنيسة الاسقفية بفتح ارسالية لطائفة اليعاقبة، ثم قام ساوثكيت باستضافة مطران السريان الأرثوذكس بهنام لدى الارسالية الامريكية في اسطنبول بضعة اشهر ساعده في تلك المدة على دراسة اللاهوت وتلقينه التعاليم الدينية الخاصة، وبعد عودة بهنام الى الموصل شجعه ساوثكيت على فتح المدارس والحصول على الكتب المفيدة باللغة السريانية وعهد الى القس ميخائيل جمالا، احد القسس السريان الارثوذكس، تمثيل الارسالية في الموصل بجمع شمل الانجيليين في الموصل، وفتح المدرسة التبشيرية الامريكية. وبالفعل فتح ميخائيل المدرسة ولكن بعد عدة شهور اصبحت المدرسة بحاجة الى التمويل الذي وعدت به ميخائيل الارسالية في تركيا، ليتمكن من مواصلة نشاطه في تعليم الطلاب، الا انه لم يتسلم أي اموال من اسطنبول فاصبح وجها لوجه امام ازمة مالية، وبسبب عدم ايفاء الارسالية بوعودها قرر ساوثكيت الانسحاب من الموصل حينها اغلق ميخائيل المدرسة وقطع علاقته مع الارسالية الاسقفية وتوجه هو وميخائيل نقار الى المبشر بركنز وحثاه على فتح ارسالية للأثوريين في الموصل عام 1849، فتم فتح الارسالية باسم الارسالية الاثورية في نفس العام، الا ان هذه الارسالية لم تفتح أي مدرسة. ولصعوبة اقامة ارسالية تبشيرية دائمة في الموصل اتُبع طريقة ارسال مبشرين الى الموصل دون البقاء فيها لمدة طويلة لكثرة الامراض والاوبئة، فجاء الموصل المبشر الامريكي الدكتور حسقيل وزوجته وشيدا مدرسة فيها وتركاها في عهدة احد القساوسة البروتستانت وغادرا الموصل عام 1864. كما قام المبشرون في الموصل بشراء اراضي واسعة في الموصل ليشيدوا عليها دورا مريحة ولإقامة مستشفيات، الا ان قلة التبرعات في الولايات المتحدة بسبب الحرب الاهلية(1861-1865)، ولعدم الحصول على الموافقة اللازمة نتيجة قلة اهتمام الوزراء الامريكان بالإرساليات والمدارس خلال المدة(1860-1880) كانت من العوامل التي ادت الى تغيير المبشرين لخططهم، لذلك

قرروا اقامة المشاريع في ماردين، وبعد سنوات اصبحت مدرسة ماردين العالية للبنين والبنات تزود مدارس الموصل بالمعلمين والمعلمات. ثم جعل مجلس المندوبين الامريكي الموصل محطة تبشيرية ثانوية تابعة الى ماردين لقطع الطريق على الارساليات التبشيرية الاخرى التي كانت ترغب بالعمل في الموصل. ونتيجة لعدم جدوى المحطة قرر المجلس التخلي عن الموصل عام 1891 للمجلس المشيخي. ثم تخلت الكنيسة المشيخية عن الموصل عام 1898، واصبحت الموصل بعهدة الارسالية العربية التركية، الا ان هذه الارسالية لم تبدأ عملها في الموصل الا في عام 1900، عندما فتحت مدرستان واحدة للبنين، واخرى للبنات، كما انشأت مكتبة لبيع الكتب الدينية، واستقدمت معلمين من ماردين لخدمة الكنيسة والمدارس.

كانت اخر البعثات التبشيرية الامريكية هي الارسالية العربية، وهي ارسالية بروتستانتية ذات اهداف تبشيرية في منطقة الخليج العربي والجزيرة العربية. لقد ولدت فكرة الارسالية في مطلع ثمانينيات القرن التاسع عشر، واصبحت حقيقة واقعة في اب 1889 بجهود كل من جيمس كانتين، وفيليب فيلبس، وصموئيل زويمر، طلاب المعهد اللاهوتي للكنيسة المصلحة الهولندية في نيوبرونزويك في ولاية نيوجرسي، ود. جون لاننسج استاذ اللغتين العبرية والعربية في ذلك المعهد، واستقر رأيهم في خريف 1891 على تأسيس أول محطة للإرسالية في البصرة، والتي اصبحت لسنوات عدة مراكز وقاعدة لعملياتهم في منطقة الخليج العربي.

لم يكن اختيار البصرة قاعدة ومحطة اولى لعمليات الارسالية امرا عفويا بل كان امرا مدروسا ومخططا نظرا لما يتمتع به موقع المدينة من اهمية استراتيجية في المنطقة كلها، فهي اكبر واهم ميناء يسيطر على رأس الشمالي للخليج العربي، وقد تسهل مهمة النفاذ الى عمق الجزيرة العربية، هذا الى جانب ان الحكومة الامريكية سبق وان انشأت قنصلية هناك استطاع المبشرون ان يعيشوا تحت حمايتها. كما رحبت بهم البعثات التبشيرية الاخرى القريبة من البصرة والتابعة للجمعية الكنسية للبعثات التبشيرية في بغداد، ووعدتهم الجمعية الانجيلية البريطانية التعاون معه ايضا. من جانب اخر رأى اعضاء الارسالية ان البصرة مدينة واسعة

ومجتمعها مختلط الى حد كبير حتى دار في خلدهم بانهم سوف لن يكونوا محط انظار السلطات المحلية، فجاء التأكيد على ان تكون البصرة رسميا أول مقر للإرسالية العربية الامريكية بعد الانتقال من بيروت.

لم يلبث ان اصطدم اعضاء الارسالية بالسلطات العثمانية كانت واعية لما يقوم به المبشرون الامريكان، عندما نفت احد المهتدين الى بغداد، ولم يسمح له بالعودة، كما منعت منتسبي الارسالية من القيام بجولات تبشيرية، وامرت بغلق المكتبة، ومصادرة الكتب ووضعت مسكن الارسالية تحت رقابة الشرطة. رغم ذلك تمكن اعضاء الارسالية من فتح محطة في مدينتي العمارة عام 1895، والناصرية 1897، ثم تم توحيدهما في محطة واحد عام 1910.

ويبدو ان اعضاء الارسالية وصلوا البصرة في الوقت الذي تحول فيه تسامح واهمال الحكومة العثمانية لمشروع الارسالية الى معارضة، لذا كان عليهم بذل كل الجهد لتثبيت اقدامهم اولا وقبل كل شيء، فقرروا توجيه الاهتمام ليس بالجانب التبشيري الديني فقط، بل الاهتمام بالميدان الطبي والتعليمي. فقد انشأوا مدرسة صغيرة عام 1905 ولكن السلطات العثمانية اغلقتها بعد مدة قصيرة، لعدم وجود ترخيص مسبق بها.

لقد واجه العمل التبشيري صعوبات ادت الى فشل الامريكان في نشر مذهبهم البروتستانتي، نظرا: لمقاومة المسلمين والطوائف المسيحية الاخرى، ومقاومة عنيفة من السلطات العثمانية المحلية.

لقد شعر اعضاء الارسالية بشيء من الطمأنينة بعد نجاح الاتحاديين في الاستيلاء على الحكم عام 1908، حيث رفع الحضر على الكثير من الكتب الدينية المطبوعة، وازيلت الكثير من القيود التي فرضت على العمل والسفر، ومن بين ذلك سمحت السلطات العثمانية المحلية للسيد موردیك بافتتاح مدرسة في البصرة، بعد جهد كبير للحصول على ترخيص بذلك فبدأت المدرسة بثلاثين تلميذا، ومن الجدير بالذكر ان النشاط التعليمي للإرسالية الامريكية في البصرة بدأ فعليا في عام 1912 بفضل جهود المبشر الامريكي جون فان ايس الذي وصل الى البصرة عام 1903، وقام بعدة جولات في مدن وقرى جنوب العراق، وفي

عام 1910 خلال زيارته وزوجته الى اسطنبول، نجح في الحصول على ارادة سلطانية(فرمان) منحت الارسالية بموجبه حق ادارة مدارس للبنين والبنات، وبعد عودته وزوجته من اجازتهما في عام 1911 عهدت اليهما الشؤون الثقافية في البصرة فشرعا بتأسيس مدرسة للذكور واخرى للإناث هناك.

في نيسان 1912 افتتحت مدرسة الرجاء العالي الاسم الرسمي لمدرسة البنين، ثم الاسم الرسمي ايضا لمدرسة البنات في كانون الاول من العام نفسه، واقيمت المدرستان بالقرب من احدهما الاخرى في مدينة البصرة. وعند افتتاح الفصل الصيفي لعام 1913 كان عدد المسجلين في مدرسة يربو على الثمانين تلميذا، اما مدرسة البنات فضمت تسع وعشرين تلميذة، ويقرب من نصف العدد في كلتا المدرستين كان من المسلمين. وقد سمحت الحكومة العثمانية لأعضاء الارسالية بتدريس الانجيل للتلاميذ في المدرستين، من المسلمين والمسيحيين على حد سواء، وكانت اللغة العربية لغة التدريس، وادخلت اللغة التركية ايضا ضمن منهج الدروس الذي كان يتضمن اللغة الانكليزية والجغرافية والرياضة وعلم الصحة فضلا الى اعمال الخياطة والتطريز للبنات.

ـ الحركة الفكرية وتنامي الوعي القومي:

ان البدايات المتواضعة لعملية تحديث العراق التي وضحت معالمها في اواخر القرن التاسع عشر كانت لها اثار مهمة على مجمل الحركة الفكرية في القطر ولم تكن هذه الحركة مقطوعة باي حال من الاحوال عن التطور الفكري الذي كانت ملامحه تتبين في ارجاء الوطن العربي الاخرى، فاستخدام الطباعة في اقطار عربية كمصر والشام مكن الكتاب العربي المطبوع في تلك الاقطار من الوصول إلى ايدي القراء العراقيين بيسر لم يسبق له مثيل من قبل، وهكذا اصبح ثمة جمهور يتتبع بشغف ما كانت تتجه مطابع مصر والشام

وغيرهما من كتب عيون التراث العربي سواء كانت تلك الكتب دواوين لشعراء متقدمين أو اعمال رفيعة لأدباء افذاذ ومؤرخين نابعين، ففتح ذلك بابا واسعا للمقارنة بين ماضي الامة الزاهر، وماهي عليه في عهدهم من تخلف وتأخير. وزادت الصحافة التي شهدت انتشارا كبيرا ابان الحقبة نفسها من حدة ذلك الشعور إذ سهلت اطلاع القراء في العراق على مقالات مختلفة لمفكرين بارزين رواد، امثال الطهطاوي والكواكبي تناولوا فيها قضايا عصرهم الملحة كالحقوق القومية والتعلم والاصلاح الاجتماعي، كما ساهمت الصحافة أيضاً في تواصل القراء بما يجري في وطنهم العربي الكبير من احداث تنمي تحسسهم بمشاكل امتهم وقضاياها المصيرية، ويمكن القول ان الصحافة اخرجت قراءها من النطاق المحلي إلى الاطار القومي، فأصبحت انباء اشتداد الهجمة الاستعمارية على اجزاء من الوطن العربي تثير الحماس القومي لدى اجزاء اخرى منه، ومن ناحية اخرى فان الصحافة مكنت العراقيين انفسهم من الاسهام الفعال في تطوير الفكر القومي وانضاجه وبخاصة في بدايات القرن العشرين، بما كانوا يرفدون به الصحف العربية فضلا عن العراقية، من مقالات وقصائد عديدة تقدم طروحات فكرية متنوعة وعن طريق تلك الصحف عرف القراء العرب اعمال ادباء عراقيين نابهين، امثال معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي واحمد الشاوي وعبد المحسن الكاظمي كان لكل منهم مواقف قومية واضحة، وبعد ان كانت المجالس الادبية التي اعتيد عقدها في بيوت المثقفين قاصرة في معظمها على المطارحات الادبية والاخوانيات، تحولت مهمتها في هذه الحقبة لتغدو مجالس فكرية اكثر سعة تناقش فيها القضايا العامة والمواقف المختلفة.

نتيجة تنامي الوعي القومي لدى الفئات المثقفة من العراقيين الذين كانت تضطرهم اعمالهم أو دراستهم للإقامة في العاصمة العثمانية، فقد انخرط بعضهم في تنظيمات جمعية (الاتحاد والترقي) التي كانت تدعو إلى اجراء اصلاح دستوري تنال بموجبه شعوب الدولة العثمانية حقوقها القومية، ولذلك فقد عمت البهجة وروح التفاؤل اوساط عراقية واسعة عندما وصلتها انباء نجاح اعضاء هذه الجمعية في اجبار السلطان عبد الحميد

الثاني(1876-1909) على اعادة العمل بالدستور في 24 تموز 1908 الذي كان معلقا منذ عام 1876،بما يكفله من حريات وحقوق، وتم فتح فروع للجمعية في بعض المدن العراقية وسط جو من التفاؤل والامل. ويشير السفير البريطاني في الدولة العثمانية جيرالد لوثر ان الجماهير في بغداد استقبلت اعادة العمل بالدستور بحماسة، في حين لم يلق الدستور ترحيبا كبيرا في الموصل.

ولكن سرعان ما تكشفت الحقيقية المرة للجميع، اذ لم يكن قد مضى على تولي الاتحاديين للحكم بضعة اشهر الا وقد اسفروا عن نواياهم السياسية التي بدأوا في تنفيذها في الولايات العربية من حيث سياسة التتريك ودمج العناصر غير التركية، وقد عجلت هذه الاجراءات في تقويض كيان الدولة العثمانية، واخذت جمعية الاتحاد والترقي باتخاذ اجراءات اكثر تعسفا واستبدادا مما كان قبل اعلان الدستور، فاحدث هذا التبدل المفاجئ ردود افعال حادة وسريعة في الولايات العربية. ومما زاد من نفور العرب من الاتحاديين هو ما يسمى بقانون انتخاب مجلس المبعوثان. ففي 24 تموز 1908 تقرر الدعوة الى القيام بانتخابات لتشكيل مجلس للمبعوثان(البرلمان العثماني)، وبدأت الاستعدادات لإجرائها، غير ان الذين يعرفون اصول الانتخابات كانوا قليلين جدا في اسطنبول، اذ ان عدد اعضاء مجلس المبعوثان يجب ان يمثل شخص واحد عن كل خمسين الف من التبعية العثمانية، والانتخاب على الاقتراع السري، وقد صمم الاتحاديون على ان تكون اكثرية المبعوثان من الترك اولا، ومن المنتسبين لجمعية الاتحاد والترقي ثانيا، وقد عمدوا الى ترشيح مبعوثين من الترك في مختلف الولايات العربية مخالفين بذلك الدستور، فقد فاز منهم 15 نائبا تركيا يمثلوا الولايات العربية.

في العراق تدخل الاتحاديون في شؤونه مستغلين قانون الانتخابات العثمانية الذي كان يحصر حق النيابة بسكنة المناطق الانتخابية واهاليها، بل كان يسوغ لأي شخص مستكملا لشروط الانتخاب ان يرشح نفسه عن أي منطقة شاء، وبهذه الطريقة فاز حمزة بك قائمقام القرنة السابق وهو تركي من الاتحاديين عن لواء المنتفك، بعد ان فرضه المتصرف

فريد بك وانذر بالشر من ينتخب غير قائمة الاتحاديين، واضطر المعارضون الى الانسحاب، وقد خصصوا للعراق 17 نائبا منهم عراقيون، وبذلك حرمت العشائر العراقية من حق المشاركة بالانتخابات متعللين بجهلهم لأعدادهم ومواطن سكناهم. على الرغم من المآخذ التي كانت تؤخذ على مجلس المبعوثان الا انه يعد منبرا يلتقي فيه النواب من مختلف الولايات العثمانية، وقد تأثر النواب العراقيون بنواب القوميات الاخرى من المتطرفين وغيرهم، هذا مما ساعد على نمو الوعي الفكر لديهم، ولقائهم مع النواب العرب قد ولد لديهم الكثير من التقارب في وجهات النظر، وتنسيق العمل السياسي.

لقد ادت سياسة الاتحاديين الى رد فعل كبير في العراق تجسد في اتجاهين:

1. رفض الدستور ومساندة السلطان عبد الحميد الثاني.
2. العمل لتأكيد الحقوق القومية للعرب.

بالنسبة للاتجاه الاول برز اثناء قيام الثورة المضادة ضد اعضاء جمعية الاتحاد والترقي في اسطنبول، وسرعان ما تشكلت هناك الجمعية المحمدية، وتركزت دعوتها على وجوب الوقوف بوجه الدستور، لكونه مخالف للشريعة الاسلامية، على حد اعتقاد زعماء الجمعية، وقد انتشرت انباء الثورة المضادة الى جميع الولايات العثمانية، ومن ضمنها الموصل التي تشكل فرع للجمعية المحمدية فيها في اواخر عام 1908، واتخذ من المدرسة الاحمدية في منطقة باب السراي مقرا له، ولقيت الجمعية رواجا في اوساط الناس، وبعض علماء الدين الذين كانوا يميلون للسلطان عبد الحميد الثاني، فانتموا اليها دون ان يعلموا شيئا عن طبيعتها أو عن هوية مؤسسيها.

اما الاتجاه الاخر فقد يجلى عندما نبذ الاعضاء العرب عضويتهم في الجمعية الاتحاد والترقي، وانطلقوا في مجالات العمل السياسي العلني والسري على حد سواء بهدف تحقيق امالهم القومية والتصدي لأية محاولة لطمس هويتهم العربية. واید العرب القوميون من العراق والاحزاب المناوئة للاتحاديين ومنها الحزب الحر المعتدل الذي تأسس بإستنبول لمناوئة جمعية الاتحاد والترقي، فشكلوا فروعا له في البصرة وبغداد والموصل، ومارست هذه الفروع نشاطات بارزة بهدف السعي وراء كل ما ينهض بالأمة العربية، كما اسس اخرون فروعا لحزب

الحرية والائتلاف العثماني المعادي للاتحاديين والمنادي بمبدأ اللامركزية في حكم الولايات، فكان في كل من بغداد والبصرة فرع ينادي باتباع سياسة لامركزية تمنح العرب حقوقهم القومية كاملة وكانت السمة العامة لهذه الفروع انها كانت تتبع سياسة شبه مستقلة عن قيادتها الرسمية في الدولة العثمانية، وانها كانت تنسق عملها غالبا مع الفروع الاخرى في العراق والوطن العربي، اكثر من تنسيقها مع قياداتها تلك وانها كانت تتبع نهجا قوميا عربيا خاصا بأحوال الامة العربية في تلك المرحلة. واضافة إلى ما تقدم فقد اسس العرب القوميون في العراق احزابا وجمعيات قومية مستقلة تماما لعبت ادوارا مختلفة في التصدي لسياسة التتريك التي قامت بها جمعية الاتحاد والترقي، ففي البصرة الفت المعارضة للاتحاديين في تشرين الثاني 1911 حزب الحرية والائتلاف، وقد ايد معظم البصريين هذا الحزب، وعقد اول اجتماع للحزب في دار السيد طالب النقيب حضره حوالي 100 شخص من وجهائها، وكانت اهداف الحزب لا تتعد المطالبة بالمساواة بين العرب والاتراك وضرورة الاصلاح في الامبراطورية العثمانية وانهاء سياسة الاضطهاد. وفي بغداد اسس نفر من الزعماء العرب جمعية (المشورة) بهدف ضرب نشاط الاتحاديين والمطالبة بالحكم الذاتي للعرب، كما قام عدد من الشباب العربي المثقف بتأسيس جمعية عربية باسم (النادي الوطني العلمي) عام 1913 زاد عدد اعضائه على مائتي عضو، وكان هدفه تطبيق الحكم الذاتي للعرب ضمن نظام اللامركزية وذلك بالتعاون مع الاحزاب والجمعيات القومية المشابهة له في الهدف. وفي العام نفسه انشأ العرب القوميون في البصرة يتزعمهم السيد طالب النقيب جمعية عربية قومية عرفت بجمعية البصرة الاصلاحية وكانت من اقوى التنظيمات القومية العربية واكثرها نشاطا في العراق. وكانت هذه الجمعية على غرار حزب اللامركزية في القاهرة وابرز اهداف الجمعية:

1. ان يكون العراق ارضا عثمانية تحت راية الهلال.
2. يعين الوالي من الحكومة المركزية على ان يكون عراقيا مسلما بعاداته وتقاليد العشائر المحلية، وان يعين مدير المالية، والقاضي، والمتصرف، ومدير الجمارك والبريد بعد استشارة المجلس العموم وان يكونوا ملمين باللغة العربية.

3. العربية هي اللغة الرسمية في جميع الدوائر في الولاية.
4. يخدم الضباط العرب في بلادهم.
5. تدريس جميع العلوم في المدارس باللغة العربية، مع العناية بالعلوم الدينية واللغة التركية.

وخلال العام نفسه عقدت الجالية العربية في باريس مؤتمرا للمطالبة بحقوق العرب، وعرف بالمؤتمر العربي في باريس، وفي العراق ارسل السيد طالب النقيب الى باريس برقية يؤيد فيها عقد المؤتمر، كما ارسل جماعة من بغداد برقية يطلبون فيها ان يمثل العراق في المؤتمر توفيق السويدي وكان آنذاك يدرس في باريس، وقد وقع البرقية مزاحم الباججي، ونعمان الاعظمي، وشاكر غضيبة، وعبد الرحمن البناء، وعبد اللطيف المدلل، ومحي الدين الكيلاني، وبهجت زينل، ويوسف ضياء، ومحمد سعيد الراوي واخرون. وابرقت من بغداد برقيات اخرى كثيرة في تأييد المؤتمر، دفع اصحابها اجورها غير انها لم ترسل. ولكن رغم ذلك حضر المؤتمر اثنان من العراق احدهما توفيق السويدي.

كان لظهور عزيز علي المصري وهو ضابط في الجيش العثماني اثر كبير في تزايد الحركة القومية فقد اسس في 28 تشرين الاول 1913 جمعية عربية سرية عرفت باسم جمعية العهد، واخذ يجتذب اليها شبان العرب من ضابط وطلاب، وكان الضباط العراقيون يؤلفون الاغلبية في هذه الجمعية كنوري سعيد، وياسين الهاشمي، وجميل المدفعي، ومولود مخلص، وعلي جودت الايوبي، وطه الهاشمي وغيرهم. واصبح منزل عزيز علي المصري في اسطنبول يعج بالحركة، اذ كان يلتقي فيه الشبان العرب لاسيما الضباط منهم.

وفي بغداد قام قوميون اخرون بأنشاء جمعية (العلم السرية) عام 1914 تضم جمهرة من المدنيين المتحمسين للعمل القومي وكانت تنبع في عملها اسلوبا يتسم بالثورية ويهدف إلى تأسيس دولة عربية مستقلة.